البروفيسور معز الخلفاوي (جامعة توبنغن :الألمانية) لـ «الصحافة اليوم» (2-2):

في كل أماكن العالم يوجد أناس يشبهوننا

في الجزء الثاني من الحوار مع البروفيسور معز الخلفاوي ، يقترح من منظوره كـ «عليم» مقاربات حول مسائل شائكة مثل المساواة في الإرث وكيف أنّ العلمانية الحقيقية هي الضامن لتديّن المتديّنين ولحياة مستقرة، وحول الفقه الإسلامي من منظور أوروبي وحول الجامعة التونسية وما ينقصها. كما يتحدّث عن «طريقه» الذي لا يزال مفتوحا على الحياة والعلم والعمل.

في تونس أعيد الجدل حول الشريعة بمناسبة قضية الإرث. الإسلاميون يبدو أنّهم بلا تصور أو رؤية حول هذه المسألة (لا تصور واضح عندهم عن الشريعة) واستطاعوا أن يزجّوا بمسألة المساس من المقدسات في دستور يضمن حرية الضمير. كيف ترون المعضلات التي قد تعترضنا في دولة مدنية دينها الإسلام وأيّة آفاق للحلول؟

من الصعوبة بمكان في الوضع الراهن التقدم نحو العلمانية الحقيقية. في اعتقادي الحل الوحيد لشعوب المنطقة ككل هي العلمانية، وهي تختلف عن اللائكية. العلمانية الحقيقية أكبر ضامن لتديّن المتدينين وهي أكبر ضامن لحياة مستقرة. سبب التلكؤ هو التراجع الاقتصادي. حققت تونس منذ 2011 تقدما كبيرا في حرية التعبير والديمقراطية الخ، لكن كل من أعرفهم من الخبراء يبدي حذرا شديدا، للأسف لا يوجد إلى اليوم دولة حققت تقدما في مجال الاقتصاد ومرت من الفقر الى الرخاء في ظل نظام ديمقراطي، أغلب البلدان المتقدمة اليوم قادتها أنظمة شمولية إلى التنمية الاقتصادية، ومرّت منها إلى التطور الانساني. هذا لا يعني التطبيل للنظم الشمولية، ولكن هي الحاجة إلى أنظمة قوية تعرف ما تحتاجه بلدانها وتكون عادلة وغير ظالمة. وبعد تحقيق دخل سنوي مرتفع وبنى تحتية ومعرفية رائقة تتحول الشعوب بطبيعتها إلى مطالب الديمقراطية والحرية الخ. هذا هو سبب الجدل والتأخر في حسم موضوع القوانين، والخطل في موضوع الميراث وغيره من المواضيع. من حسن الحظ أنّ الديمقراطية التونسية اليوم تقف سدا في وجه الظلم وليس لها من سلاح سوى فضح كل تجاوز وهو أمر جيد جدا بقي ما أتمناه هو أنّ تكرار الفضائح يؤدي إلى تجنب أسبابها والتقليل منها، دون أن ننسى أنّ الأمر قد يتحول إلى البحث عن وسائل أكثر تعقيدا. ثانيا الدساتير في العادة تكتب لأشخاص لم يوجدوا بعد، أي أنّها تحمل ما يجب أن يكون، في دستور تونس، كتب الدستور للتعبير عن رأي الموجودين للأسف، لذلك محدودية آفاق هذا الدستور، على ما فيه من إيجابيات، لذلك الحاجة إلى مزيد تطويره بقوانين تكميلية مثل قانون الإرث. الرافضون للتعديل قدّموا حججا تقبل الدحض، لم يقدموا حججا خرافية، وذلك بسبب تقدم الحوار حول الموضوع، يعني نحن في الاتجاه الصحيح وما هي إلا مسألة وقت، لأنّ المساواة حاصلة في الواقع، في العمل وفي البيت وفي كل مكان، الرجال موافقون أغلبهم وواقفون على حقيقة المساواة، بقيت مسألة الشعارات المرفوعة الخ، ذلك أمر السياسيين.

كيف ترون الفقه الإسلامي من منظور أوروبي ؟ كيف نتدبّره ؟ هل توجد به مقولات أو مبادئ تجعله في مستوى العصر؟

الاهتمام بالفقه الاسلامي سببه الأول حق التعبّد وحرية المعتقد. وهو حق مكفول يمكن للمسلمين بموجبه الاكتفاء بمجال العبادات. في هذا المجال الامر متروك للمسلمين ولا أحد يتدخل في هذا. الجدل القائم اليوم يتركز على مسألة الحقوق المدنية وقانون الأسرة بالخصوص بسبب الرغبة في الزواج الاسلامي والفرائض أي الميراث الخ. القانون الوضعي كما قلت هو قانون سيّد مجاله الجغرافي ولا يسمح إلا بما يتّفق مع مبادئ العلمانية، لذلك يقوم الجدل اليوم حول مواضيع مشتركة بين العبادات والمعاملات، مثلا موضوع الختان وموضوع الحجاب. يمكن أن يقبل القانون الوضعي لبس الحجاب مادام الأمر تعبّدي ولكن لا يسمح بلبسه في أماكن العمل بسبب مبدأ الحياد في المؤسسات العمومية. لذلك الجدل اليوم حول إمكانية التعايش بين المبدأين، وهو موضوع يهمّ كل الاديان والمعتقدات. من خلال دراسة الفقه وتدريسه إلى جانب القانون الوضعي ومن خلال النقاش والعمل المشترك مع منتسبي الأديان الأخرى ومع أرباب القانون الوضعي هناك تقدّم في النقاش، هذه القوانين موضع جدل دائم في محكمة حقوق الإنسان الأوروبية وغيرها من الهيئات وأهمّ مكسب فيها هو أنّ المسلمين أنفسهم يتقدّمون. نعم، هناك فهم جديد وتقدم في الأمور العقدية. لذلك أرى أنّ الدول الاسلامية تحتاج لتطوير قوانينها إلى الاعتماد على ما يدور في أوروبا والغرب من جدل حول الفقه والقانون الوضعي.

ما الذي ينقص الجامعة التونسية حتّى تبلغ مستوى الجامعات الألمانية ؟ (أظن أنّك كتبت مرة عن « ممانعة» جامعيين تونسيين في قبول الخبرات الألمانية ...)؟

هذا السؤال فاجأني، ماذا لو عكسنا السؤال: وقلنا على الجامعات الألمانية كذا وكذا لتكون مثل الجامعات التونسية؟ عندها سأضطرّ إلى حذف كثير من الأمور، أوّلها سأقول على الجامعات الألمانية التخلّي عن كمّ كبير من الأشياء لكي تصبح مثل الجامعات التونسية. شخصيا أنا فخور بالتعليم التونسي، ربّما لأسباب شخصية، ولكن أنا لا أحبّ جلد الذات، التعليم في تونس يعمل، مثلما الباص في تونس يتحرّك، ومثلما المصانع والمؤسسات مفتوحة. ما نحتاجه هو تصوّر شامل يجعل الباص يأتي في وقته، والمسؤول الحكومي يعمل لينتج والجامعي يعمل ويبدع. تونس تنتج ملايين الطلبة، مستواهم للأسف ليس دائما ممتازا ولكن هذا يمكن اصلاحه. أعرف الكثير الكثير من الأمور والبلدان المتخلّفة في كل مجالات الحياة، الشباب التونسي ممتاز بكل أطيافه، انا لم أنقطع عن تونس، هناك أمل كبير. نعود الى الجامعات، تونس كانت لديها فرصة كبيرة جدا بعد الثورة لتقفز إلى جانب البلدان المتقدمة، هذه الفرصة تلاشت بسبب جهل الجاهلين. أذكر أنّ حديثا دار بيننا وبين مسؤولين تونسيين من أعلى رأس السلطة بُعيد الثورة ، كانوا متهورين يردّدون عبارات بلا روح ولا يرون في التونسيين بالخارج غير تحويل بعض المبالغ المالية. قلنا لهم التعليم الجامعي يمكن أن يحل مشكل السياحة والاقتصاد. تقوم الفكرة على فتح الباب أمام التبادل الجامعي، كان هناك ملايين من البشر تريد زيارة تونس، تريد معرفة حضارتها وشعبها. عندما يأتي الطالب أعرف أنّه سيعود سائحا بعد فترة مع أصدقائه وعائلته، ثم إنّ هؤلاء سيدفعون العلم ويحتكّ بهم الطلبة في كل المجالات، سنكسب التكنولوجيا بلا ثمن، ثم سيصبح لبلدنا أصدقاء في مراكز القرار. قدمت هيئات كثيرة أموالا طائلة لتمويل مثل هذه المشاريع، ولكن المسؤولين التونسيين كانوا على غباء كبير للأسف، أعجبتهم المراكز التجارية وأنفقوا الوقت في التبضع وشراء قطع غيار السيارات أكثر من الحديث مع الخبراء. لكن مازال في الأمر أمل أتمنى أن لا يذهب ذلك سدى.

كيف ترون عالم ما بعد الكورونا؟ وهل ثمة ما يفيدنا في كيفية تعامل الفقه الإسلامي مع الأوبئة قديما؟

الأديان تحمل إرثا كبيرا في كيفية التعامل مع الكوارث، سواء في المستوى الصحي أو المستوى النفسي، الإيمان النقي الصافي يساعد الانسان على مجابهة مشاكل العصر، لذلك ندرّس الرعاية النفسية ونرافق المرضى وكبار السنّ وفي الكوارث، لا غنى عن هذا، وقد أصبح اليوم للمسلمين عدد كبير من الأخصائيين في هذا المجال، تخيل مريضا على فراش الموت، يأتي رجل دين، غير مؤهل أوّل شيء يبادر إليه هو الحديث عن العقوبة وجهنم الخ دون سابق علم بحياة هذا الشخص وعظمة اللحظة التي هو فيها. هذا أمر ينفرّ ولا يقرّب، الاخصائيون في هذا المجال لهم تدريب نفسي ويساعدون الانسان لأنه انسان.

تجربتك كإنسان وكباحث (من الكاف إلى تيبنغن) مميّزة. كيف ترى مكامن النور ومكامن العتمة في الشخصيتين التونسية والألمانية؟

أنا انسان قبل كل شيء وأنتمي إلى الكون، ولا أعرف بالضبط أين ستكون النهاية، سافرت وتعلمت ولكن الحنين إلى مواضع الصبا لا يعادله حنين. أوّل شهادة حصلت عليها قبل دخول المدارس، وبكل فخر هي شهادة في رعاية الاغنام وهي إجازة شفوية من كبار الرّعاة وهي التي ضمنت لي حريتي وقناعتي، لأني يمكن أن أعود اليها إذا ضاق الطريق. أسف كثيرا عندما أرى ما آل إليه وضع الرعاة في تونس. أحب الرئيس بورقيبة كثيرا ولكنه ارتكب خطأ كبيرا بتلصه من الرعاة وجعل عبارة «سُرّاح سبّة». تدمّرت الماشية وغادر الرعاة إلى المدن فصاروا مشرّدين. هناك دول كاملة ترتزق من الماشية، من تصدير اللحوم والحليب والصوف... وكانت لتونس ثروة لا تقدر بثمن، ومستقبلنا لن يكون ما لم نتصالح مع الرعاة، ومع الماشية والزراعة.

أما عن نفسي فكل ما أعرفه وأملكه أريد أن أتخلص منه للآخرين وسرعان ما أجد لنفسي طريقا جديدة لعلم جديد وأصدقاء جدد وعالم جديد، لا أذكر أبدا أنّ يوما من أيامي كان مشابها للبقية، وهي نعمة من الله. أتمتع بحياتي كما لو كانت لي أبدا وأسارع إلى التخلص منها قبل فوات الاوان، ليست هذه عبارات وداع لأنّ الحياة والعلم والعمل كأنما بدأ للتوّ والطريق ماتزال طويلة جدا إن شاء الله. في كل أماكن العالم يوجد أناس يشبهوننا ويمكن لنا العيش والتواصل معهم ومصادقتهم، وهم أقرب إلينا من أقرب الأقربين لذلك أرى نفسي في كلّ مكان

حوار: كمال الهلالي